(القابضُ الباسط)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245]

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27]

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً، وتِسعِينَ اسماً، مَن حَفِظَها دَخَلَ الجَنَّةَ**». وفي رواية: «**مَن أَحصَاهَا**».

وفي رواية الترمذيِّ تفصيلُ هذه الأسماء، ولم يُفَصِّلْها غيره، وعد فيها: القابض الباسط.

وروى الترمذي عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: غَلاَ السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، سَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، القَابِضُ، البَاسِطُ، الرَّزَّاقُ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلاَ مَالٍ**».

عنوان خطبة اليوم :

القابضُ الباسط

(القابضُ الباسط) اسمان من أسماء الله تعالى الحسنى، ورد ذكرُهما في حديثي الترمذي كما سمعتم، وورد ما يدلُّ عليهما في القرآن الكريم فيما يزيد على خمسة عشر موضعاً.

قال العلماء: الْأَدَب فِي هذَيْن الاسمين أَن يُذكرَا مَعًا لِأَنَّ تَمام الْقُدْرَة بذكرهما مَعًا، أَلا ترى أَنَّك إِذا قلتَ: إِلَى فلَانٍ قبضُ أَمْرِي وَبسطُه، دلَّا بمجموعها أَنَّك تُرِيدُ أَنَّ جَمِيع أَمرك إِلَيْهِ؟.

أصلُ القبض في اللغة: ضمُّ الشيءِ المنبسطِ من أطرافه، والبسطُ: نشرُه.

والله تعالى قابضٌ باسطٌ: يقبضُ الأرزاق ويبسطها، ويقبضُ الأرواح ويبسطها، ويقبضُ الأنفس ويبسطها، ويقبضُ الأرض ويبسطها.

فهذه أنواع أربعة من القبض والبسط في الرزق والنفس والروح والأرض.

أما القبضُ والبسطُ في الرزق فبعلمٍ وحكمةٍ وقدرة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 30]

وإنَّ من العباد مَن لا يصلحُه إلا الفقر، ومَن إذا استغنى فسدَ، وإنَّ من العباد مَن لا يصلحُه إلا الغنى، ومَن إذا افتقرَ فسد.

هذا، وإنَّ الرزقَ رزقان: ماديٌّ وروحيٌّ، مادي برؤية الأرزاق، وروحي برؤية الرزاق، وأحظى العباد من جمع اللهُ له الرزقين واستخدمهما فيما يحب الله ويرضى.

وربما كان امرؤٌ في بحبوحةٍ قبل الأزمة، فضُيِّقَ عليه فيها، وربما كان عبدٌ في قلةٍ فوُسِّع عليه فيها، فلْيعلمْ أنَّ القابضَ الباسطَ اللهُ، وأن الذي قبضَ يبسطُ، وأنَّ الذي بسطَ يقبضُ، وأنَّ الله خيرُ الرازقين، فاجتهدْ في طلبِ الحلال، واجتنب المالَ الحرامَ، وسلِّم للقابض الباسط في أمره وقضائه وقدره.

وأمَّا القبضُ والبسطُ في النفس، وضيقُها وانشراحها وخوفها ورجاؤها فهو بيد القابض الباسط، وهو لحكمةٍ منه جل جلاله يداوي عباداً بالضيق، ويُشافي عباداً بالشرح، ويقضي حوائج خلقٍ بالقبض، ويُيسِّر أمور آخرين بالبسط، يصلحُ أقواماً بالخوف وأقواماً بالرجاء.

روى الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في مذكراته قال:

كنتُ قاضياً في الشام، وحدث أنْ كنَّا مجموعة نمضي المساء عند أحد الأصدقاء، فشعرتُ بضيق نفس واختناقٍ شديد فاستأذنت أصدقائي للرحيل، فأصروا أن أتم السهرةَ معهم، ولكني لم أستطعْ، وقلتُ لهم: أريد أن أتمشَّى لأستنشقَ هواءً نقياً.

خرجتُ من عندهم ماشياً وحدي في الظلام، وبينما أنا كذلك إذ سمعتُ نحيباً وابتهالاً آتياً من خلف التلة، نظرتُ فوجدتُ امرأةً تبدو عليها مظاهرُ البؤس تبكي بحرقةٍ وتدعو الله، فاقتربتُ منها، وقلتُ لها: ما الذي يبكيك يا أختي؟

قالت : (إنّ زوجي رجلٌ قاسٍ وظالمٌ طردني من البيت، وأخذ أبنائي وأَقسَم أن لا أراهم يوماً، وأنا ليس لي أحدٌ ولا مكان أذهب له).

فقلت لها: ولماذا لا ترفعين أمرك للقاضي؟.

فبكتْ كثيراً وقالت: كيفَ لامرأةٍ مثلي أن تصل إلى القاضي؟!.

قال فقلت لها: أبشري يا أختاه، أنا علي الطنطاوي قاضي دمشق، وقد ساقني الله إليك بعد أن ضيَّق عليَّ الأنفاس لِيُخرجني من بيت أصدقائي في ظلمة الليل، ويقدّرُ لي أن أسلُكَ هذا الطريق؛ لأقفَ أمامك وترفعين إليّ شكواك، وقد جرتِ العادةُ أنّ الشاكي هو الذي يذهب إلى القاضي، ولكني الليلةَ رأيتُ أنّ القاضي هو الذي ذهب إلى الشاكية.

فالقابضُ الباسطُ يداوي عباداً بالضيق، ويشفي عباداً بالشرح، ويقضي حوائج خلق بالقبض، وييسر أمور آخرين بالبسط، يصلحُ أقواماً بالخوف وأقواماً بالرجاء.

ولعل ذاكراً لله تعالى ملتزماً طاعته محافظاً على أوراده، يشكو تغَيُّر حال قلبِه، فقد كان يجد شرحاً افتقده الآن، ويستأنسُ سعةً افتقدها الآن، فلْيعلَم أنَّ القابضَ الباسطَ هو الله، قبضَك برحمته، وبسطك بمودته، وقبضَك وبسطَك لتجأَرَ إليه في الحالين، ولا تعتمد على حالك ومقامك.

ولْيعلَمِ امرؤٌ أنَّ البسطَ مقامٌ، وأنَّ القبضَ مقام، وأشار أهلُ التربيةِ الروحية أنَّ مقامَ القبض أعلى من مقام البسط، ذلك لأنَّ المرءَ ربما صلى وتلا وذكر باحثاً عن البسط والشرح، ولا يوجد مَن يصلي ويتلو ويذكر باحثاً عن القبض، فمن حافظ على أوراده مع القبض فهو مخلِصٌ حقاً طالبٌ للقابض الباسط، ومَن حافظ على أوراده في البسط وتخلى عنها في القبض، فهو طالبٌ للبسط لا للباسط.

ومن هنا كان العارفون إذا بُسِطوا أخوفَ منهم إذا قُبِضوا.

قال ابنُ عطاء الله السكندري: (قبضَكَ كي لا يتركَك مع البسط، وبسطَكَ كي لا يبقيك مع القبض، وأخرجَك عنهما كي لا تكون لشيءٍ دونه.

وأمَّا القبضُ والبسطُ في الروح: فعند قبضها يحصلُ الموتُ وعند بسطها تحصل الحياة ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

وكم من مرةٍ يئسَ الأطباءُ من حياة مريضٍ، ويئسَ الأهلُ من حياة مفقودٍ، فإذا بالقابض الباسط يُبرئُ الأولَ ويعيدُ الثاني!!.

قُل للمريض نجا وعُوفيَ بعدما ... عجَزتْ فنونُ الطِّب، مَن عَافاكا؟
قُل للصحيح يموتُ لا مِنْ علّةٍ ... مَن بالمنايا يا صحيحُ دهاكا؟
قل للطبيب تخَطَّفَتْه يدُ الردى ... يا شافيَ الأمراض مَن أَرداكا؟
قل للبصير وكان يَحْذر حُفْرة ... فهوى بها، من ذا الذي أهواكا؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام ... بلا اصطدامٍ، مَن يقود خطاكا؟
قل للجنين يعيشُ معزولاً بلا ... راعٍ ومرعىً، ما الذي يرّعاكا؟

وإذا تـــرى الثعبـــان ينفثُ سُـــمّه فاسْـــأله مَن ذا بالســـموم حشـــاكا؟
واســـألهُ كيـــف تعيش يـــا ثعبـــانُ أو تحيـــا وهـــذا الســـمُّ يملأُ فاكـــا؟
واسألْ بطونَ النحل كيف تقاطرتْ شـــهداً وقـــل للشَّـــهد مَن حَلاّكـــا؟
بـل سـائلِ اللبنَ المصـفّى كـان بين دمٍ وفـــرثٍ، مـــا الـــذي صَـــفّاكا؟
اللـــهُ في كـــل الأمـــور مُقَـــدِّر إن لم تكنْ لِـــتراه فهـــو يراكـــا

وأمَّا القبضُ والبسط في الأرض: فالأرض مبسوطة في الدنيا ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 19، 20].

فإذا قبضها قامتْ قيامتها ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67].

أيها الإخوة:

هـذه أنـواع أربعـة من القبض والبسـط في الـرزق والنفس والـروح والأرض، قـال الإمـام الغـزالي: (القابضُ الباسطُ هو الذي يقبضُ الأرواحَ عن الأشباح عند الممات، ويبسطُ الأرواحَ في الأجساد عند الحياة، يبسطُ الرزق على الأغنياء حتى لا يُبقي فاقة، ويقبضُه عن الفقراء حتى لا يبقي طاقة، ويقبضُ القلوبَ فيضيّقها بما يكشف لها من خوفِه وتعاليه وجلاله، ويبسطُها بما يتقرب إليها من بِرِّه ولطفه وجماله).

أيها الإخوة:

إذا كان الله تعالى القابض الباسط فما المطلوب منا تأدباً مع هذين الاسمين؟

المطلوب ثلاثة أمور:

1. إذا علمتَ أنَّ الله هو القابضُ الباسطُ في الرزق، فارضَ بقضائه، والزم قرعَ بابِه، وخُذ من الأسباب ما استطعتَ.
2. إذا علمتَ أن الله هو القابض للأرواح كما بسطها في الأجساد فاستعدَّ لهذا القبض.
3. إذا علمتَ أنَّ اللهَ هو القابضُ الباسطُ لنفسك، فاعلم أنَّ الذي يصلحُ نفسَك هو حملها على جناحي الخوف والرجاء، فلا يقطع بك اليأسُ إذا نزلتْ بك أزمةٌ، ولا يذهبْ بك الفرحُ إذا حلَّتْ بك النعمة.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**» [مسلم].

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا يَبْسُطُ رَجُلٌ مِنْكُمْ يَدَهُ إِلَى اللهِ يَسْأَلُهُ خَيْرًا وَيَرُدَّهَا حَتَّى يَضَعَ فِيهَا خَيْرًا**» [حلية الأولياء].

والحمد لله ربِّ العالمين